**بسم الله الرحمن الرحيم**

## مقدمة الطبعة الأولى

شهدت المجتمعات على مدار العصور – ولا زالت– حالات من الحراك، تتجلى بوضوح في الفعل السياسي والرغبة في التغيير، وتتبلور في إحساسها بحقها في أن تنعم بحياة، عمادها العدل والحرية واحترام حقوقها الإنسانية وكرامتها البشرية. وتنتفض بين الحين والآخر طلائع تمثل ضمير شعوبها، باحثة عن دورها الذي وجدت من أجله. وراسمة حلمها التغييري، عازمة على أن تطيح بالديكتاتوريات التي تسببت في قعود مجتمعاتها عن مواكبة التطور الإنساني العالمي.

وتأتي إسهامات أكاديمية التغيير العلمية في إطار تقديم الخبرة الإنسانية التراكمية للشعوب، تنميةً للعقل التغييري، وتعزيزاً للفكر الاستراتيجي، ونشراً لثقافة التغيير على أسس علمية، مستفيدة في ذلك من التجارب الإنسانية على مر العصور، لاستكمال وصقل طرق الكفاح والتطوير التي بدأها أحرار الإنسانية الصامدون.

### كتاب حرب اللاعنف

ويأتي كتاب "حرب اللاعنف .. الخيار الثالث" كمادة تأسيسية ضرورية للمهتمين بقضية التغيير، حيث تشير إلى طريق ثالث، وخيار محتمل – تجدر دراسته بعمق – للتحرر من الديكتاتوريات، تجنباً للوقوع في أسر الثنائيات، إما العنف أو الاستسلام.

وقد اخترنا مصطلح "حرب اللاعنف" للإشارة إلى أن اللاعنف لايعني الاستسلام أو الوقوف بشكل أعزل في مواجهة الاستبداد؛ وإنما يستعمل وسائله الخاصة في الحرب التي يشنها ضد الديكتاتوريات على وجه الخصوص أو ضد خصومه السياسيين بصفة عامة. وتعتمد تلك

الأسلحة على قوة الشعوب، تلك القوة التي تستند إلى أسلحة فعالة ومؤثرة تقابل أسلحة الخصم، غير أن ما يميزها أن قوتها لا تكمن في إزهاق الأرواح أو تفجير المنشآت؛ إنما في بناء أفضل ما في الإنسان... عقله وروحه، وإرادته.

وعندما يقرر نشطاء المقاومة اللاعنيفة عبر العالم التصدي للديكتاتوريات بصدورهم العارية، متوشحين بثوب الأمل، وبريق الفكرة؛ فعليهم أن يخططوا للنجاح. لأنهم لا يسعون إلى تسجيل الحضور في مسرح الأحداث عبر أنشطة متنوعة؛ بل يسعون من خلال أنشطة مدروسة إلى تحقيق الانتصار... الانتصار على الذات بقهر الخوف، والانتصار على اليأس باقتلاعه من نفوس الجماهير، والانتصار على الاستسلام بطرد وهم المستحيل عبر تحرير عقول الجماهير المتطلعة إلى التغيير، والانتصار على الديكتاتوريات بتخليص البشرية من شرورهم. بل والانتصار للأساليب الحضارية الفعالة على وسواس العنف، الذي قد يظنه الناس خطأً الدواء الوحيد لأزماتهم.

إن علماء ونشطاء حرب اللاعنف يدركون عظم التبعة الملقاة على عاتقهم، فهم يُدَشِّنون مرحلة جديدة في تاريخ البشرية، تمتلك فيها الشعوب السلطة والقوة، بعد أن كانت أداة في يد قلة تحكمها، ويتجاوز فيها الفعل المقاوم إطار المحلية إلى المقاومة الإنسانية العالمية، حيث تذوب الحدود بين الدول في فلسفة الفعل المقاوم، وتحتشد الإنسانية على اختلاف ألوانها متجاوزة كل الحدود، للتصدي للظلم أياً كان موقعه، وإقامة عالم العدل والحرية والكرامة الإنسانية. إن نشطاء ومنظري اللاعنف يعلمون أنهم يقودون ثورة في الفكر والفعل، ويعيدون تعريف القوة وتوزيعها في المجتمعات. ويحملون البشارة بأن البشرية تستحق أفضل مما هو كائن، وبأن ثمة وسائل جديدة لإدارة الصراعات ستفرض نفسها على منطق الفعل، وسائل تنتصر للقيم الإنسانية، وتتبع فلسفتها من تلك القيم.

إن استجابة البشرية للقيم الإنسانية النبيلة مرهون بامتلاك هذه القيم استراتيجيات وأسلحة قوية وفعالة تكافيء – بل تفوق – استراتيجيات وأسلحة خصومها، وهذا هو أحد التحديات الكبرى أمام أصحاب المباديء العليا، فالاكتفاء بترديد القيم النبيلة لا يجعلها واقعاً معاشاً؛ بل قد ينفر الناس منها باعتبارها لا تصلح لعالم يحوطه الشر من كل مكان. فهل يمتلك الحق طرائق وأسلحة فعالة ومقنعة؟!

إن علماء ونشطاء حرب اللاعنف يوقنون وهم في أتون معركتهم الحضارية أن نجاح نشاط واحد يتحول إلى مصدر إلهام يحيي الأمل في الإنسانية الباحثة عن مخرج، ويقض مضاجع الديكتاتوريات. وأن الفشل قد يزيد من سطوة هذه الأصنام، ويوجه فعل الجمهور إلى اتجاهات لا تُحمد عقباها، سواء تَسَتَّر هذا الفعل في انسحاب يائس من مشروع التغيير، أو أخذ شكلاً سافراً من العنف الشعبي الذي قد يلتهم فرص الحياة في المجتمع.

ولذلك عليهم أن يبدعوا أفكار واستراتيجيات ووسائل فعالة، ولا يكتفوا باستخدام وسائل – أية وسائل. فدورهم لا يقتصر على التخلص من ديكتاتوريات عصرهم؛ بل إحداث ثورة في نمط الفعل التغييري، تلهم الأجيال سبلاً تقهر الظلم والظُلاَّم وتحافظ على المجتمع والإنسان معاً.

وفي النهاية فقد وضعنا بين يدي القارئ هذه الدراسة كحجر أساس لتوضيح الصورة الكلية لحرب اللاعنف، وكيف انتقلت بها المجتمعات من مقاومة الهواة إلى انتصار المحترفين. والتبشير بمستقبل وأفق تطوير هذا المسار.

**قسم الدراسات والأبحاث**

**أكاديمية التغيير**

**2006**

## مقدمة الطبعة الثانية

فرغنا من كتابة هذه الطبعة يوم 11 سبتمبر 2012، فقبل إحدى عشرة سنة، لم يكن بإمكانك أن تقنع أحداً بسهولة أن تغيير العالم ممكن أن يكون بدون عنف، فمنطق القوة هو الحاكم، وهي هنا قوة السلاح.

لقد أدان الكثيرون بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر استخدام العنف، لكن البديل ظل غائباً، والإدانة في ظل غياب البديل تجعل منطق الأمر الواقع يفرض نفسه. فإدانة العنف مع غياب البديل تفيد عملياً بأنه أنه لا يبدو هناك أي أفق للتغيير، فالعنف تم تجريمه، دون أن يكون هناك مسار آخر تم تحريره.

إلى أن جاءت الثورات العربية لتعيد تعريف القوة، حيث أعلنت الشعوب أنها دخلت المعادلة، وأنها كفيلة بالإطاحة بالديكتاتوريات. فهزت عروش الديكتاتوريات، منها من تمكن من إنجاز ثورته عبر حرب اللاعنف مثل تونس ومصر، ومنها من بدأها حرباً غير عنيفة اكتسبت تعاطف الشعوب، ثم اضطر إلى الدخول- بسبب هول القمع- في مسار العنف مثل ليبيا وسوريا. ومنها من كانت سمته الأساسية السلمية إلا ما ندر مثل الثورة اليمنية..

واليوم إن فكرنا أن نحدث تغييراً في أي مكان في العالم، يمكن على الأقل أن نتناقش حول جدوى حرب اللاعنف... حتى مع أكثر التيارت نزوعاً للعنف يمكن أن يدار حوار.. أما قبل ذلك.. فقد كان النقاش عسيراً!!

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في عام 2007، ثم أضيفت تعديلات بسيطة له نشرت على الإنترنت ولم تطبع ورقياً، ثم كانت هذه الطبعة الثانية التي تتميز عن الأولى في عدة أمور.

تتميز هذه الطبعة عن سابقتها في وجود الكثير من الإضافات بها، فقد دمجنا في هذا الكتاب أهم ما تضمنه كتاب "أسلحة حرب اللاعنف"، وهو كتاب يستعرض أهم وسائل حرب اللاعنف. لم يطبع ورقياً، ولكن نشرنا نسخة إلكترونية منه على موقعنا في مايو 2010، والسبب في هذا الدمج هو جمع أهم المفاهيم الشارحة لتعريف "حرب اللاعنف" في كتاب واحد، لسهولة التداول والرجوع إلى المعلومة.

احتفظنا في الطبعة الجديدة بنفس منهجية التناول في الطبعة الأولى، فالكتاب يستعرض تعريف حرب اللاعنف، ويبحر مع مفردات التعريف في هذا البحر المعرفي الواسع، ويدخل في التفاصيل بحسب ما يقتضيه شرح أهم المفاهيم الواردة في التعريف.

وقد شمل الكتاب عدة إضافات كان من أبرزها:

ما ذكرناه في التمهيد عن منهجية كتابة هذا الكتاب، وهو ما لم يكن في الطبعة الأولى.

في الباب الأول تم توضيح سبب اختيارنا لمصطلح "حرب للاعنف"، وفصلنا في ذلك. كما أضفنا في نفس الباب شرحاً لمفهوم "شن الصراع" محاولين الإجابة على سؤال.. هل حرب اللاعنف تشن الصراع أم تنهيه؟

وفي الباب الثاني تناولنا درجات نهاية الصراع التي يُتوقع أن يُختم بها أي صراع غير عنيف.

وفي الباب الثاني تم إضافة تصنيفات جديدة لوسائل اللاعنف، كما استعراضنا أهم الأفكار الفلسفية حول وسائل حرب اللاعنف، والفرق بينها وبين الوسائل السلمية التقليدية. كما أعدنا استعراض الوسائل بشكل جديد، وأضفنا ملحقاً في نهاية الكتاب لشرح كل وسيلة.

كذلك كانت هناك إضافات في الباب الثالث "أساسيات حرب اللاعنف"، حيث تم شرح بعض النقاط بمزيد من التفصيل. مثل إضافة مسطرة المقاومة والاحتجاج في معرض التمييز بين المقاومة والاحتجاج.

كذلك تم إضافة باب رابع أخير وجديد حول مستقبل حرب اللاعنف، وما تتطلبه للانتقال من الهواية إلى الاحتراف. بحيث تتقلص مساحة العنف في الصراع شيئاً فشيئاً كلما تمكنا من تطوير ذلك الأسلوب.

وبالرغم من أن هذه الطبعة تأتي بعد الثورات العربية، إلا أننا لم نضف تجارب الربيع العربي في ملحق التجارب، واكتفينا بالتجارب التي أدرجناها في الطبعة الأولى عام 2007، حيث كان نطاق البحث يشمل فقط تجارب القرن العشرين. لأننا حرصنا أن يحتفظ الكتاب بروحه التي صبغته قبل الثورات، وتمسكنا بنفس الطريقة في الكتابة واللغة.. فهو وإن كان كتاباً يبشر بحرب اللاعنف كأسلوب لتدمير عروش الظلم؛ إلا أنه كذلك شاهد على حقبة تاريخية.. كانت هذه الأفكار فيها تحاول شق طريقها وسط موجات اليأس المفرط، أو العنف غير المدروس.

**قسم الدراسات والأبحاث**

**أكاديمية التغيير**

**11 سبتمبر 2012**

# التمهيد

**المحتويات**

1. الإطار العام للكتاب.

2. المفهوم المختزل لحرب اللاعنف.

3. تساؤل يحتاج إلى جواب (سؤال البحث).

4. منهجية الإجابة.

5. طبيعة هذا الكتاب.

6. بناء الكتاب.

7. لمن هذا الكتاب.

## 1. الإطار العام للكتاب

نتناول في هذا البحث فلسفة وأشكال الممارسة السياسية اللاعنيفة للحركات التغييرية والمقاومة، في إطار الدول ذات الأنظمة الديكتاتورية، أو الشمولية، أو الفردية، أو الاستبدادية.. فهذا الكتاب لا يتعرض لجميع أشكال ووسائل الفعل التغييري المقاوم، مثل الانقلابات والتدخلات العسكرية الخارجية، وغيرها من أشكال الفعل العنيف، كما أنه لا يتناول أشكال ووسائل المعارضة الدستورية الباردة المختلفة، كرفع الدعاوى، ومقاضاة الممارسات الفاسدة. كما أنه لا يتعرض لأشكال الممارسة السياسية في الدول ذات الأنظمة الديمقراطية أو التعددية كتداول السلطة عبر الانتخابات.

وقد اضطرنا الحديث عن الممارسة السياسية المدنية اللاعنيفة إلى استخدام بعض المصطلحات السياسية المتعلقة بممارسات المجتمع المدني في الدول الديمقراطية من قبيل "العمل الدستوري" أو "الممارسة الدستورية"، وهي المصطلحات التي أعدنا توصيفها بما يناسب طبيعة العمل السياسي في ظل الأنظمة الديكتاتورية – محور كتابنا هذا – كما دعانا الحديث

عن الفعل التغييري والمقاوم إلى استخدام بعض مصطلحات الحرب العسكرية المختلفة مثل "التسلح" أو "الأسلحة" أو"المقاومة" أو "الحرب"، وهي المصطلحات التي أعدنا توصيفها وتعريفها في إطار الفعل اللاعنيف. ومن ثم لابد أن تُقرأ وتُفهم مثل هذه المصطلحات في سياق الممارسة اللاعنيفة – مناط بحثنا – بعيداً عن مدلولاتها في الفعل العسكري العنيف، كما استخدمنا مصطلحات "الأسلحة" و"الوسائل" للدلالة على نفس المفهوم. وهو أدوات ممارسة الفعل اللاعنيف.

ونشير إلى أن هذا التحديد للإطار العام للكتاب، وطريقة استخدامنا للمصطلحات السياسية والعسكرية فيه؛ يعد أمراً في غاية الأهمية، حرصاً على تفادي أي لبس، أو سوء فهم، أو تحليل في اتجاه يبعد تماماً عن صلب النتائج والأفكار التي نعرضها من خلال هذا الكتاب. خاصةً وأن استخدامنا للمصطلحات يبدو مغايراً لما هو شائع في مثل هذه الكتابات.

كذلك لا يدخل في نطاق هذا الكتاب الحديث عن"التكتيكات"، وهي فن إدارة الأسلحة والقوات. فالكتاب يتعرض فقط لفلسفة حرب اللاعنف، والتي تشمل في أحد جزئياتها شرحاً وافياً لطبيعة أسلحتها وفلسفتها التي تقوم عليها مع سرد نماذج لها، ولا يتعرض بشكل موسع لتفاصيل التخطيط واستخدام الأسلحة تكتيكياً.

ويأتي هذا البحث لمواجهة معضلة فكرية و"ممارساتية"، تسود واقع الفعل السياسي في كثير من البلدان التي ترزح تحت نير الأنظمة الإستبدادية، وبصفة خاصة في بلدان العالم العربي والإسلامي، وهي معضلة المفهوم المختزل والمشوه لحرب اللاعنف.

## 2. المفهوم المختزل لحرب اللاعنف

يختـزل الكثيـرون حـرب اللاعنـف فـي أنمـاط معينـة مـن الأنشـطة، كالمظـاهرات، والإضرابات، والاعتصامات. ويردد آخرون كلمة "العصيان المدني" معبرين عن أشد أسلحة حرب اللاعنف فتكاً بالخصوم السياسيين، ويعتقد فريق آخر أن وسائل المعارضة الدستورية – كالتداول السلمي للسطة عبر الانتخابات– تمثل جوهر العمل اللاعنيف. إلا أن مفهوم حرب اللاعنف يتجاوز كل هذا، كما تتنوع أشكال هذه الحرب وتأثيراتها واستخداماتها تنوعاً كبيراً، يجعل اختزال الفاعلين السياسيين لها في هذه الأنماط التقليدية الشائعة، والخلط بينها وبين وسائل المعارضة الدستورية؛ وكأنهم يقفون مكتوفي الأيدي والعقول في مواجهة ترسانة ضخمة من أسلحة الديكتاتوريات، مما يجعل تلك الأنماط التقليدية قليلة الفائدة، إن لم تكن عديمة الجدوى بالكلية.

وعلى الرغم من افتقاد هذا الكتاب إلى دراسة إحصائية دقيقة حول تصور القادة والفاعلين السياسيين لمعنى حرب اللاعنف وطبيعة أساليبها وأنواع وسائلها ؛ إلا أن كثيراً من نقاشاتنا، وحواراتنا مع العديد من القادة، والنشطاء، والفاعلين السياسيين، والمفكرين، والاستراتيجيين – في العالم العربي والإسلامي على وجه الخصوص – والتي تمت عبر أنشطة الأكاديمية المختلفة؛ أدت بنا إلى ملاحظة هذا الاختزال المُخِّل، والتفكير المضطرب لدى الكثيرين.

فمع أنهم لم يعودوا يؤمنون بجدوى العمل العنيف للتخلص من الاستبداد الداخلي، وأنهم يرون أن العمل "السلمي" من خلال القنوات الدستورية بات هو السبيل الوحيد أمام تحرير الشعوب من قيود الاستبداد؛ إلا أنهم لا يملكون يقيناً جازماً في جدوى وقدرة العمل "السلمي" على تغيير قواعد اللعبة السياسية، كما أنهم لا يمتلكون صورة محددة أو واضحة عن طبيعة

الأسلحة أو الوسائل أو الآليات التي لابد من استخدامها إحداث هذا التغيير في قواعد اللعبة السياسية لصالح هذه القنوات الدستورية، بحيث يكون خوض المواجهة من خلالها عملاً مجدياً، ولا يعرفون كيفية خلق وسائل أو أسلحة جديدة، ولا يدركون الفارق بين العمل "السلمي البارد" والعمل "اللاعنيف الساخن"، ولا يفطنون لإشكالية وصف ممارساتهم بـ "الدستورية" في ظل نظام مستبد، مما يقدح في وعيهم السياسي وجدوى المسار الذي ينتهجونه كما سيتبين لاحقاً.

### 3. تساؤل يحتاج إلى جواب

وانطلاقاً من هذا اللبس الناتج عن الصورة الضبابية عن حرب اللاعنف لدى كثير من القادة السياسيين، فقد استلزمت الدراسة توضيح فكرة حرب اللاعنف في عقل القارئ والفاعل السياسي، ومدى اختلافها وتمايزها عن غيرها من المسارات الدستورية "السلمية"، والإجابة على أسئلة أساسية من قبيل: هل هناك فارق حقيقي بين مسار حرب اللاعنف باستراتيجياتها ووسائلها وأسلحتها وآلياتها وبين المسار الدستوري "السلمي"؟ وأين يكمن هذا الفارق أو التمايز؟ وهل يمتلك اللاعنف ترسانة حقيقة من الأسلحة تلبي حاجات الحركات التغييرية خلال مراحل الحراك التغييري المختلفة؟ وهل هناك طريقة يمكن من خلالها تصنيع أو تخليق المزيد من الأسلحة الفعالة، بما يناسب حالات التغيير السياسي المختلفة؟ بل وهل يمكن أن تدخل حركات التغيير في "سباق تسلح" – إن جاز التعبير – مع الأنظمة الديكتاتورية، مما يعيد التوازن الاستراتيجي بينهما؟ وهل استراتيجيات حرب اللاعنف يمكنها موازنة؛ بل وتجاوز استراتيجيات الخصوم السياسيين المستبدين؟

هذا التساؤل الرئيس الذي صغناه في أشكال مختلفة، يمثل في حقيقة الأمر سؤالاً ضمنياً حول الجدوى الفعلية لحرب اللاعنف. فافتقاد حركات التغيير اللاعنيفة لاستراتيجيات وتكتيكات

وأسلحة فعالة ومؤثرة تعيد توازن القوة بينها وبين الأنظمة الديكتاتورية – بل وربما تفوقها في مراحل الصراع الأخيرة – يجعل جدوى استخدام اللاعنف كأسلوب تغيير سياسي محط تساؤل واستفسار، إن لم يكن محط شك وارتياب.

### 4. منهجية الإجابة

وفي إطار بحثنا عن إجابة هذا التساؤل المحوري حول طبيعة وجدوى حرب اللاعنف، كان لابد ابتداءً من التناول النظري لبعض العناوين الكبرى المتعلقة بالفلسفة التي تقوم عليها حرب اللاعنف. مثل: العلاقة بين مسار حرب اللاعنف والدستور، وطبيعة نظرية القوة التي تنطلق منها حرب اللاعنف، والفارق بين أسلحة ووسائل حرب اللاعنف وغيرها من الوسائل، والكيفية التي تقيَّم بها أنشطة حرب اللاعنف... هل هي مقاومة، أم احتجاج؟ وأهم خصائص هذه الأسلحة وطرق تصنيفها.

وفي إطار سعينا لإجابة هذه الأسئلة اعتمدنا الطريقة التجريبية النوعية أو الوصفية لدراسة وتحليل التجارب التغييرية اللاعنيفة المتنوعة التي شهدها العالم ، والوسائل المختلفة التي تم استخدامها في سياق الأنشطة اللاعنيفة على مر التاريخ المكتوب. وقد غطت هذه المظلة الوصفية والتحليلية أبعاداً ثلاثة:

**جغرافياً:** مساحة واسعة من التجارب العالمية، بدايةً من القارة الآسيوية، ومروراً بأوروبا وأفريقيا والأمريكتين.

**وزمنياً:** حوالي ثلاثة قرون تبدأ من القرن الثامن عشر وحتى العقد الأول من القرن الواحد والعشرين.

**وتقنياً:** مساحة بحثية كبيرة، استقيناها من المصادر والوثائق الأولية، والثانوية، والكتابات التحليلية، والأدبيات التي تناولت الموضوع، وخصوصاً ما كتبه كل من جين شارب وجان ماري مولر وكورت شوك في كتبهم حول العمل اللاعنيف.

وثاني هذه المصادر هي الأفلام الوثائقية المختلفة التي تناولت تجارب تغييرية بعينها، مثل الأفلام التي تناولت الحراك التغييري في صربيا، وأوكرانيا، والهند، وبولندا، وتشيلي، وجنوب أفريقيا، والأفلام التي تناولت أنشطة احتجاجية أو مقاومة لسياسات أو قوانين محددة مثل مقاومة الأمريكيين ذوي الأصول الإفريقية لسياسات التمييز العنصري، أو التظاهرات التي اجتاحت إيطاليا في عام 2000 احتجاجاً على زيارة رؤساء الدول الثمانِ الكبرى.

وثالث هذه المصادر، الأفلام السينمائية التي تناولت قصصاً حقيقية مثل فيلم "معركة سياتل" الذي تناول مقاومة اجتماع منظمة التجارة العالمية في مدينة سياتل الأمريكية في عام 1999.

ورابع هذه المصادر هي الحوارات، والمناقشات، واللقاءات المباشرة، ولقاءات الإنترنت، والفعاليات الإعلامية والعلمية والثقافية المختلفة، مع كثير من النشطاء والفاعلين حول العالم، وخصوصاً نشطاء العالم العربي والإسلامي.

كما ضم بحثنا مواقع ووثائق بعض الحركات التغييرية في مختلف قارات العالم، امتداداً من شرق آسيا إلى غرب الولايات المتحدة الأمريكية، مروراً بالعالم العربي وإفريقيا وأوروبا.

### 5. طبيعة هذا الكتاب

وفي النهاية يمكن النظر إلى هذا الكتاب من عدة زوايا، فالبعض قد يعتبره كتاباً فلسفياً كونه يسهب في شرح معنى مفهوم حرب اللاعنف، ويضع الحدود الفاصلة بين هذا المسار وبين

غيره من المسارات السياسية الأخرى، فهو كتاب مرجعي يمكن الاستعانة به من قبل الباحثين والأكاديميين والمفكرين والقارئين لفهم وتوضيح بعض النقاط التي قد تشغب عليهم. بينما قد يراه أخرون كتاباً استراتيجياً كونه يضع المعالم الأساسية لمسار استراتيجي جديد قائم بذاته، ويضع الأركان الأساسية لهذه الاستراتيجية التغييرية، فهو بمثابة دليل إرشادي يمكن الاستعانة به والعودة إليه للاسترشاد به في خضم الفعل السياسي. وقد يصنفه آخرون بأنه تكتيكي؛ لتعرضه للكثير من أسلحة حرب اللاعنف، فهو بمثابة دليل عملي يمكن الرجوع إليه لتحديد نوع الأسلحة والوصائل التي يمكن استخدامها.

والحقيقة أن جوهر الكتاب فلسفي، غير أننا نجد دائماً نقاط تقاطع بين الدوائر الثلاث الرئيسة لحرب اللاعنف، الفلسفة والاستراتيجية والتكيتك. لذلك لا يخلو هذا الكتاب الفلسفي من التناول التكتيكي والبعد الاستراتيجي.

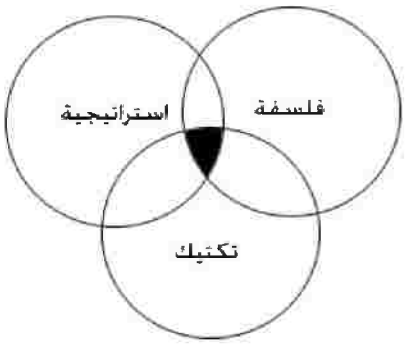


**شكل 1: مساحة التقاطع بين الفلسفة والاستراتيجية والتكتيك التي يصعب الفصل بينها بشكل قاطع**

### 6. بناء الكتاب

ينقسم الكتاب إلى أربعة أبواب:

**الباب الأول: عبر بوابة الزمان**، وسنتناول فيه نشأة وجذور حرب اللاعنف.

**الباب الثاني: حول مفهوم حرب اللاعنف**، وسنتناول فيه المباحث التالية:

الفصل الأول: طبيعة الصراع.

الفصل الثاني: أطراف الصراع.

الفصل الثالث: طبيعة القوة السياسية.

الفصل الرابع: طبيعة أسلحة حرب اللاعنف.

**الباب الثالث: حول أساسيات حرب اللاعنف**، وسنتناول فيه بعض الأسس والركائز المهمة التي تضبط حركة المقاومة خلال صراعها ضد خصومها، ونعالج بعض المفاهيم الخاطئة الشائعة.

**الباب الرابع: مستقبل حرب اللاعنف**، وسنتناول فيه أفكاراً أساسية حول آفاق تطوير هذا المسار ليتمكن من التصدي للتحديات السياسية والاجتماعية التي تواجه العالم، وكيف يمكن زيادة فعالية وتأثير هذا المسار.

ويلي هذه الأبواب الأربعة عدد من الملاحق:

الملحق الأول: التجارب التغييرية.

الملحق الثاني: أسلحة حرب اللاعنف.

الملحق الثالث: الكتب والمراجع المهمة.

وتعتمد فكرة الكتاب على شرح تعريف "حرب اللاعنف"، هذا ما يجعله يتناول مستوى الفلسفة، لكنه كذلك يلامس الاستراتيجيات والتكتيكات بدرجة بسيطة بحسب ما يقتضيه شرح التعريف وتوضيح المفاهيم الواردة فيه، فهو ليس كتاباً فلسفياً خالصاً بقدر ما هو كتاب يشرح تعريف "حرب اللاعنف" كمصطلح.

### 7. لمن هذا الكتاب

تتوجه أكاديمية التغيير بهذا الكتاب إلى كل المخلصين والغيورين على أوطانهم، إلى الذين يبحثون عن مخرج من الأنفاق المظلمة التي حفرتها الأنظمة الديكتاتورية والمستبدة في كل مكان حول العالم بممارساتها وطغيانها.

كما تتوجه به إلى كل الحركات التغييرية والمقاومة حول العالم، لتسد به بعض الاحتياجات الضرورية في عالم المقاومة والتغيير.

وتتوجه به كذلك إلى الباحثين المعنيين بهذا المجال، والذين يعانون من فراغ المكتبة العربية من مثل هذا النوع من الكتابات.

وحرصاً منا على دعم وتقوية الحركات المقاومة والنشطاء فإننا لا نكتفي بأن نتقدم إليكم بهذا الكتاب؛ ولكننا نوفر معه دورة تدريبية كاملة على موقع الأكاديمية www.aoc.fm، لشرح أجزاء الكتاب المختلفة، وفهم فكرة "حرب اللاعنف".

# قبل البدء

**"الخطأ والجهل على مستوى التكتيكات قد يكون محتملاً، أما على مستوى الاستراتيجيات فيكون مؤلماً، وعلى مستوى فلسفة الفكرة فهو مهلك".**

أكاديمية التغيير

المحتويات

1. أمم سبقت إلى المستقبل.

2. البناء التغييري.

3. أسباب تجاوز البناء الفلسفي.

يعد موضوع "حرب اللاعنف" حلقة من حلقات برنامج علمي، يهتم بتأسيس المجتمع القوي الحر، الذي يحمل رسالة حضارية إنسانية. [1]

وقبل أن نبدأ في سبر أغوار "حرب اللاعنف" يجب أن نعلم أولاً أن محور حديثنا سيكون عن المستقبل. فالمجتمع الذي تعيش فيه الشعوب بشكل إنساني متحضر، تعرف فيه القوة التنفيذية مكانها كخادمة للشعب وراعية لمصالحه، ولا مكان فيه للديكتاتوريات القابعة على صدور الشعوب، ذلك المجتمع الذي يحمل رسالة إنسانية حضارية غير موجود على أرض الحاضر المعاش في كثير من أنحاء المعمورة، ولكنه المجتمع المستقبلي المنشود.

## 1. أمم سبقت إلى المستقبل

والطريق إلى المستقبل سلكته عدة أمم، حين قررت التغلب على صعوبات حاضرها. فكثير من الأمم عانت في فترات زمنية سالفة من فساد سياسي وكساد اقتصادي وضمور ثقافي وتخلف اجتماعي، وألح عليها التساؤل.. ماذا نفعل؟؟!! فقرر فريق منها الاستسلام والانبطاح، وفريق آخر قرر الكفاح التراكمي، معتمداً منهج الواقعية السياسية[2] ومغازلة الواقع،[1] لتكون

[1] انظر المفاهيم في نهاية التمهيد صـ 48.

[2] للاطلاع على مفهوم الواقعية السياسية انظر المفاهيم في نهاية التمهيد صـ 50.

المحصلة هي الحفاظ على وجود هذا الفريق في الساحة، والحفاظ على مكتسباته، آملاً أن تؤدي تلك المكتسبات المتراكمة إلى إحداث التغيير في يوم ما، وفريق ثالث قرر أن يسلك سبيل العنف كخيار نهائي أخير، وفريق رابع زار المستقبل واكتشف شكلاً جديداً من أشكال الحروب يمكن أن يحسم الصراع.[2]

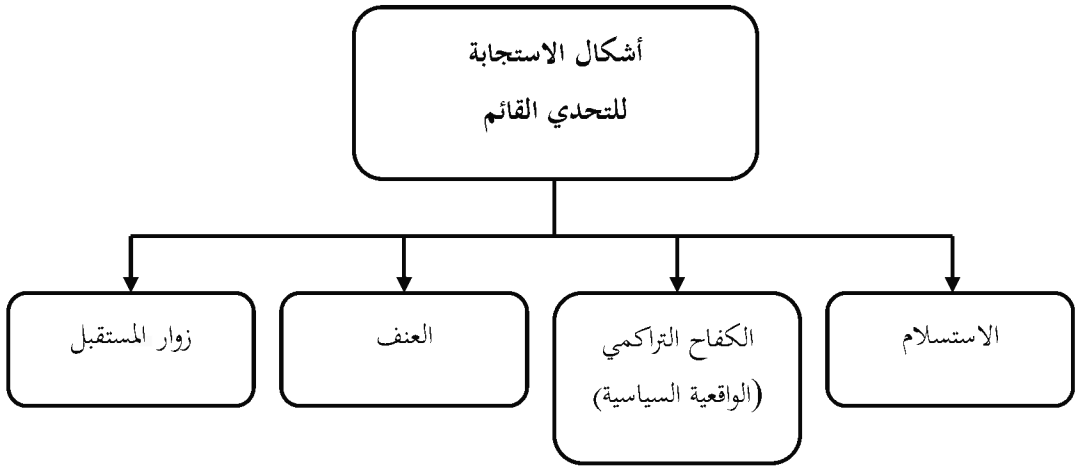


**شكل 2: أشكال الاستجابة للتحديات وفيها زوار المستقبل يعودون بحلول لحاضرهم ولا يستسلمون لضغوط واقعهم**

هذه الحرب جديدة قديمة.. جديدة لأنها تتجدد بتجدد الأيام، وبتجدد الشعوب، وبتجدد الثقافات؛ بل وبتجدد أشكال الصراع. فكلما تلون الصراع واختلفت مفرداته؛ استحدثت هذه الحرب من استراتيجياتها وتكتيكاتها ما تكافيء به الواقع. وهي كذلك حرب قديمة، لأن جذورها التاريخية ممتدة في تربة الإنسانية على مدار قرون، يعود ما وصلنا منها إلى القرن الخامس الميلادي. هذه الحرب يطلق عليها "**حرب اللاعنف**".

---

[1] للاطلاع على مفهوم الواقع ودرجات فهمه انظر المفاهيم في نهاية التمهيد صـ 52.

[2] من الضروري لعشاق بناء مستقبل أفضل أن يزوروا هذا المستقبل ليتعرفوا عليه جيداً، ثم يعودوا إلى الواقع ليبدعوا أفضل الأساليب الموصلة إلى ذلك المستقبل، فحرب اللاعنف ليست نهاية المطاف، ولكنها إحدى إبداعات أولئك الذين أبوا استنساخ الأساليب السابقة وتقليدها، وهي دليل على أن العقل البشري قادر على إحداث طفرات في الفعل تغير نمط الممارسة السياسية وأساليبها.

## 2. البناء التغييري

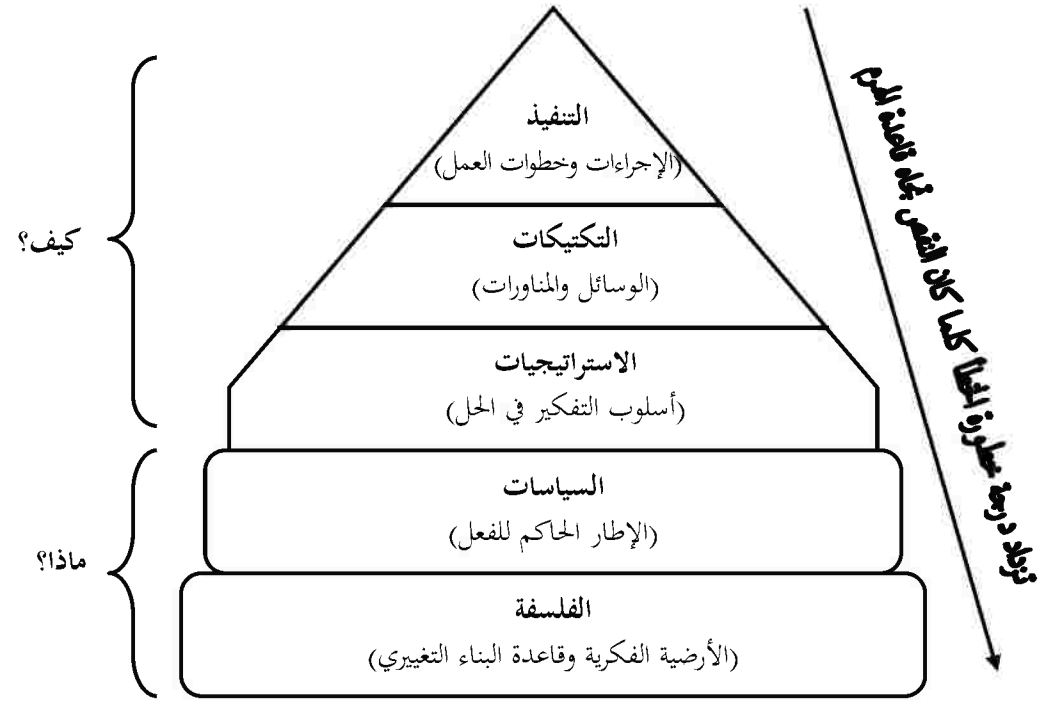


**شكل 3: البناء التغييري ومستوياته الخمسة**

وقبل الحديث عن حرب اللاعنف سنفرق بين مستويات خمسة تشكل في مجموعها البناء التغييري لتلك الحرب:

**الأول: مستوى الفلسفة:** نقصد به مستوى الأفكار التأسيسية التي تمثل قاعدة البناء والأرضية الفكرية للمشروع التغييري والحركات والمجموعات الحاملة له. وكلما ازداد عمق الفكرة، واستطاعت الإجابة على الأسئلة الحيوية الملحة المطروحة على الساحة؛ ترسخت جذورها واشتدت قوة البناء.

وهذا المستوى من الأهمية بمكان لأنه يؤثر في كافة المستويات اللاحقة. فالأساسات المطلوبة لبناء بيت متواضع تختلف عن تلك المطلوبة لبناء ناطحة سحاب. والفكرة التي يقوم عليها مجتمع ديمقراطي، تختلف عن تلك التي تقوم على أنقاضها دولة ديكتاتورية.

وتنقسم الفلسفة بصفة عامة إلى نوعين من الأفكار:

أفكار صلبة: وهي عادة تكون الأفكار الأيديولوجية التي لا يفكر معتنقها بمراجعتها أو احتمال أن تكون خطأ، وهي الأفكار التي يُعتقد فيها بيقين وجزم، مثل نوع المرجعية التي يجب أن تستند عليها الدولة، فأصحاب الأيديولوجيات الإسلامية لا يتنازلون عن فكرة أن الحكم لله وحده. وأصحاب الأيديولوجيات العلمانية يصرون على إبعاد الدين عن الحكم.

أفكار مرنة: وهي التي ليس لها نفس درجة يقين الأيديولوجيا وثقتها اللامتناهية في أفكارها، وتشمل كل الأفكار القابلة للتبديل من قِبل حاملها، مثل الآراء المتعلقة ببعض القضايا المطروحة على الساحة كدور البرلمان وصلاحياته والطريقة التي ستمكن من تمثيل الشعب فيه، ومدى صلاحيات الجيش وعلاقته بالحكم، أو مثل الآراء المتعلقة بالتصورات عن الحركة التغييرية، وطبيعة نظام العضوية فيها، أو بعض السياسات المرنة التي تحتمل التغيير.

وبشكل عام؛ فإن مستوى الفلسفة يجيب على سؤال "ماذا؟"، "ماذا نريد؟".. من خلال إجابة أسئلة الرؤية مثل:

كيف تشكل الوضع الراهن؟

ما هو التغيير المطلوب؟

هل هو عميق جذري يتناول الأوضاع كاملة بالتغيير؟ أم جزئي يركز على ملفات محددة كالملف الاقتصادي؟

ما جوهر أهدافه؟

ما مبررات وجود المشروع التغييري؟

ما منطلقاته الفكرية، وهل ينطلق من أيديولوجيا محددة؟

ما الأسس والقيم التي ستبنى الدولة الجديدة؟

ما موقع الطوائف والفصائل المتنوعة في حكم الدولة؟

ما دور المجتمع في التغيير؟

ما إمكانية إصلاح النظام السياسي من داخله؟

ما العلاقة بين المجتمع والدولة بعد التغيير؟

ما طبيعة النظام السياسي الجديد؟

ما مدى تأثير الأيديولوجيات السياسية والدينية في نظام الحكم الجديد؟

ما رؤية المشروع للقضايا الأساسية المطروحة على المستويات المحلية والإقليمية والعالمية؟

ما نظرة الدولة لكوكب الأرض برمته؟ وما إسهامها لتطويره؟ وكيف تنظر للإنسان داخل حدودها وخارجه؟

ما النماذج المعاصرة والتاريخية المقاربة؟

...الخ

وهذا المستوى يصوغ ثقافة قيادات وأعضاء الحركة التغييرية ويؤثر في كافة المستويات اللاحقة.

**الثاني: مستوى السياسات:**[1] وتعرف بأنها إطار التصرف، أو موجهات وقيود الفعل. فهي توضح ما علينا أن نفعله، وما علينا أن نتجنبه، وبذلك تحدد مدى مرونة أو جمود، تحرر أو

[1] لأن السياسات هي موجهات وقيود الفعل فقد قال إبراهام لينكولن عام 1861: "إن سياستي ألا تكون لي سياسات". ولم يكن يقصد بذلك عدم أهمية السياسات؛ وإنما كان يشير إلى مدى مرونة السياسات التي اختارها.

انغلاق، سعة أو ضيق أفق الحركة خلال المراحل المتتالية التي تمر بها. ولابد أن تكون السياسات متسقة مع ونابعة من الفلسفة (المستوى الأول). فإن كانت الفكرة تقوم على دولة تسع الجميع، من المهم في السياسات تأكيد عدم إقصاء أي فصيل أو طائفة من المشاركة، وربما السعي لمشاركة أعضاء من ثقافات متنوعة، كما سينعكس ذلك على طبيعة الشعارات المرفوعة التي ستسع الجميع.

وتجيب السياسات على أسئلة من قبيل:

- ما الضوابط التي تحكم مشروع التغيير؟
- ما علاقة مشروع التغيير بالمشاريع الإصلاحية؟
- ما ملامح خطابه المنضبط الموجه للداخل والخارج؟
- الخ

كما تنعكس سياسات المشروع على الحركات الحاملة له، لتجيب أسئلة من قبيل:

- ما أخلاقيات الحركة؟
- ما ضوابطها؟
- ما هي المتغيرات والثوابت؟
- ما علاقة الحركة التغييرية بالمشاريع الأخرى الإصلاحية أو السكونية أو الموالية للخصم السياسي؟
- ما سياسات التجنيد أو العضوية أو المشاركة؟
- ما علاقة الحركة بالمجتمع الدولي؟
- ما سياسات الحركة في التمويل؟

وغيرها من التساؤلات التي تساعد على سهولة وسرعة اتخاذ القرارات، وضبط إيقاع الحراك التغييري ليكون متناغماً مع الفلسفة، كما تساعد على ضبط المسافات بين المشروع التغييري وبين مختلف مكونات المجتمع والأطراف الداخلية والخارجية، لتكون حركة المشروع سلسلة ثابتة وغير عرضة للاهتزازات والمطبات، أو الوقوع في أسر ردود الأفعال، فالسياسات ترشدها للمعارك التي يجب تجنبها، أو التي يُشارَك فيها بشكل رمزي، أو التي تخاض بكل الإمكانيات باعتبارها معارك مصيرية.

وقد يكون لكل مرحلة من مراحل الصراع سياساتها التفصيلية، فمثلاً تكون السياسة في مرحلة البدء الاعتماد على اللاعنف المطلق، وعدم قبول أي فرد يمكن استثارته سريعاً لأعمال عنف، بينما في مراحل الحسم قد تتسع السياسات لتقبل الحركة من هم أقل تدريباً على اللاعنف، باعتبار أن الغالبية بإمكانها ضبط المسار. وقد تكون السياسات في البداية عدم التوسع في ضم أفراد جدد في الحركة، وفي مراحل لاحقة تعتمد السياسات على التوسع والتساهل في قبول أعضاء جدد. وهذه كلها تغييرات يقتضيها الانسجام والتفاعل مع الأحداث في أرض الواقع لتطبيق الاستراتيجية الكلية للحركة، وتظل الأسئلة الكبرى الفلسفية هي التي تُخضِع السياسات، مثل تأكيد الحريات، والتنوع.

وهذان المستويان معاً – الفلسفة والسياسات– يجيبان على سؤال "ماذا؟": ما هي الفكرة الأساسية لمشروع التغيير؟ ما جوهرها؟ ما أهدافها؟ ما مرتكزاتها؟ ما أخلاقياتها؟ ما ضوابطها؟ ما متغيراتها وثوابتها؟..الخ. وتمثل هذه الإجابات منطلقات العمل للمشروع التغييري. فالسياسات الضابطة لفعل حركات مقاومة الاحتلال السلمية أو العسكرية تختلف عن السياسات التي تعتمدها الأحزاب والحركات المعارضة في الدول الديكتاتورية، وكلاهما يختلف عن سياسات الأحزاب والحركات في المنظومة الغربية.

وبالاستمرار في طرح الأسئلة العميقة وتقديم أجوبة عليها يتبلور شكل التغيير المنشود ومن ثم شكل المشروع. وكلما أخذت مرحلة صياغة الفلسفة القدر الكافي من الاهتمام؛ أثرت بشكل مباشر عند تحديد الاستراتيجيات المتبعة لتنفيذ هذه الفلسفة، وتحديد نمط وشكل الحركة أو التيار الذي سيحدث هذا التغيير.

كذلك يفيد بذل الجهد الفلسفي في تحديد طبيعة البناء بعد التغيير، فتصبح مشاريع بناء الدولة أنضج بعد أن دار حولها حوار مجتمعي.

وقوى التغيير الواعية عادة تبذل جهداً كبيراً في صياغة فلسفة التغيير الذي تريد، مؤمنةً أن أي حراك تنفيذي لايحميه غطاء فكري صلب يكون أقرب إلى العبث. فهو يترك حركة التغيير في أدغال غابات التكتيكات الكثيفة دون خارطة توضح المسار، لذلك تعيد قوى التغيير الواعية النظر في الفلسفة بين الحين والآخر، من أجل تطويرها كلما لزم الأمر، ثم التعريف بالفلسفة الجديدة بوضوح لتشكل ثقافة قيادات وأعضاء رواد التغيير.

**الثالث: مستوى الاستراتيجيات:** ونقصد به فن إدارة الصراع، وأسلوب التفكير في الحلول المناسبة. والمسارات التي ستحول ما طرح من نظرات على مستوى الفلسفة إلى واقع. ويشمل مستوى الاستراتيجيات نوعين أساسيين من الاستراتيجية:

الاستراتيجيات العليا: التي ترسم المسارات الكبرى، وتضع التصور العام للتغيير وكيفية تحقيق الفلسفة أو الرؤية على أرض الواقع. وتتحدد على ضوئها الخيارات الكبرى للمشروع التغييري، وبناء عليها تتحدد بنى الحركات والقوى المكونة للمشروع التغييري، وهياكلها، وقياداتها، وأعضائها، ومهاراتهم، وخططها طويلة الأمد. وغالباً ما يتحدد هذا المستوى في إطار السياسات.

**ومن أمثلة الاستراتيجيات العليا للتغيير اختيار"استراتيجية الكُمُون"، وهي تعني كمون المقاومين داخل بنية ومكونات النظام السياسي لتغييره من داخله حين تحين اللحظة المناسبة.** أي أن الاستراتيجيات العليا تمثل المسار العام للتغيير، وبناء عليها تتحدد أداة التغيير الرئيسية، والأدوات الداعمة. فمسار الانقلاب العسكري أداته الرئيسية ضباط في الجيش بينما الأداة الداعمة حراك شعبي داعم، ومسار الثورة الشعبية أداته الرئيسية جماهير حاشدة تسعى لكسب دعم الجيش والشرطة.

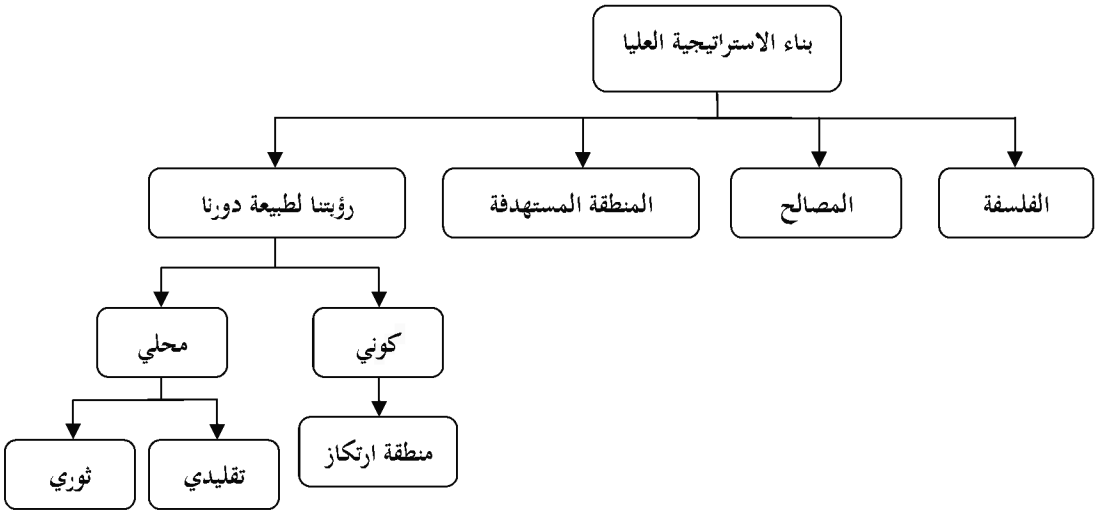


**شكل 4: عوامل بناء الاستراتيجية العليا للحركة التغييرية**

**وتصاغ الاستراتيجة العليا بناء على:**

- **الفلسفة:** بما تحمله من أيديولوجيا ويترتب عليها من سياسات.
- **المصالح:** ونقصد بها مصلحة المشروع التغييري ككل وليس مصلحة الحركة أو التنظيم أو الحزب الحامل للمشروع التغييري.
- **المنطقة المستهدفة بالفعل:** ونقصد بها النطاق أو النظام المستهدف بالفعل التغييري. هل هو النظام السياسي أم الاقتصادي أم التعليمي أم غير ذلك.

- **رؤية الحركة لطبيعة دورها:** هل ترى الحركة التغييرية أن دورها كوني يشمل كل مساحة العالم وأن الدولة التي تتحرك فيها ما هي إلا منطقة ارتكاز أو انطلاق؟ وهي حالة أغلب الحركات الإسلامية أو الشيوعية. أم أنها ترى أن دورها محلي لا يتجاوز حدود الدولة التي تعمل فيها؟ وفي هذه الحالة قد يكون دورها إصلاحي تقليدي أو تغييري ثوري.

الاستراتيجيات التفصيلية: وهي الاستراتيجيات التي تتعامل مع أحداث ووقائع محددة. وهي الاستراتيجيات التفصيلية للهجوم والدفاع والتأمين والانسحاب، مثل استراتيجيات التمويل والدعاية والإعلام والتعامل مع القمع والاتصالات، . وهذه الاستراتيجيات تنقل الاستراتيجية العليا المجردة للمشروع إلى حيز التنفيذ. فهي تعتبر الجسر الرابط بين الاستراتيجيات العليا الكبرى وبين تنفيذ هذه الاستراتيجيات على أرض الواقع.

وغالباً ما تتحدد الاستراتيجيات في إطار الفلسفة وما تتضمنه من سياسات.

وتتحدد في ضوء الاستراتيجيات أداة التغيير الرئيسة، وأداة الحسم التي تراهن عليها الحركة. وتتنوع هذه الأدوات ما بين اختراق الحزب الحاكم، أو تكوين – أو الاستعانة واستدعاء – جيش خارجي أو حرب العصابات أو الانقلاب العسكري أو الثورة الشعبية أو النضال الدستوري وغيرها من أدوات حسم الصراعات.

**الرابع: مستوى التكتيكات:** وهو فن استخدام القوات والوسائل، أو فن استخدام الموارد البشرية والمادية المتاحة من أجل تحقيق الأهداف الاستراتيجية. وتتدرج تحتها الوسائل والخطط التنفيذية والتشغيلية القصيرة، وتتحدد في إطار الاستراتيجيات.

فالتكتيكات التي تنطلق من استراتيجيات عسكرية تختلف عن تلك التي تنطلق من استراتيجيات سلمية. والتكتيكات المستخدمة لتهدئة صراع ناشب، تختلف عن تلك المستخدمة في إشعال صراع.

والتكتيك قد يشمل وسيلة واحدة أو أكثر. وهو تجسيد للاستراتيجية من خلال الأنشطة التي تصاغ في شكل خطط تنفيذية وتشغيلية قصيرة. ويعتبر مستوى التخطيط التكيتكي هو المستوى الأدنى في التخطيط الكلي للصراع. وتتعدد أصناف التكتيكات إلى هجومية ودفاعية وبناء قدرة الحركة.. الخ، وتتحدد التكتيكات في إطار الاستراتيجيات. وقد تحتوي الاستراتيجية الواحدة على عدد كبير من التكتيكات.

ومن أمثلة التكتيات طريقة تنفيذ اعتصام في مكان حيوي، فقد يتم ذلك عبر إرسال وفد من رموز مشهورين كبرلمانيين وسياسيين بارزين ينفذون الاعتصام وحدهم منعاً لحدوث أي اشتباكات، وقد يتم من خلال رموز وبرلمانيين في مكان الاعتصام تدعمهم وقفات صامتة على بعد كيلومترات بسيطة.. الخ، هذا الإبداع في طريقة تنفيذ الاعتصام بما يحقق الهدف هو فن التكتيك.

**الخامس: مستوى التنفيذ:** ونقصد به عملية التنفيذ ذاتها. وتتحدد في إطار التكتيكات، وهو مستوى تجربة الأفكار في معترك الواقع، واختراقه بها، لتعاد مراجعتها وتطويرها بناء على التجربة. لذلك يعتبر التنفيذ مستوى من مستويات البناء التغييري، وليس نتيجة له، فهو يساهم بشكل كبير في مراجعة التصورات في جميع المستويات، بداية من الفلسفة وانتهاء بالتكتيك والقدرات الفعلية للتنفيذ.

كما يعكس هذا المستوى مدى الكفاءة في تطبيق التكتيكات، والالتزام بالاستراتيجيات الفعالة، ومراعاة السياسات المحددة سلفاً. كما يشمل ما يمكن تسميته بـ (ما وراء التكتيك)، وهو المستوى الذي يتناول الجانب النفسي والمعرفي والمهاري للمنفذين، الذي يعمل على زيادة فاعليتهم في التنفيذ.

وتجيب هذه المستويات الثلاثة – الاستراتيجيات والتكتيكات والتنفيذ – على سؤال "كيف؟": كيف تخاض الحرب؟ ما المسار العام لها؟ كيف تتشكل بنيتها وقيادتها؟ كيف تفقد الخصم توازنه؟ كيف تتغلب على القمع؟ كيف تفوز بالجمهور؟ كيف تختار الأنشطة؟ كيف يتم الإعداد لها؟ ...الخ.

وإذا كانت الفلسفة والسياسات تمثل قاعدة البناء التغييري، فإن الاستراتيجيات والتكتيكات والتنفيذ تمثل رأسه المدبب الموجه إلى الخصم. فـ"ماذا؟" وحدها لا تكفي، وإنما هي كقبضة السيف.. كلما اشتدت؛ استطعنا أن نحكم قبضتنا على السيف؛ بينما "كيف؟" هي حد السيف.. كلما صقلت وتنوعت وأحسن استخدامها؛ كان السيف أمضى وأشد تأثيراً.

وتتدرج خطورة الخطأ أو الجهل بشكل تصاعدي من المستوى الخامس إلى الأول، بمعنى أن الخطأ أو الجهل على مستوى التنفيذ أو التكتيكات قد يكون محتملاً، بينما الخطأ أو الجهل على مستوى الاستراتيجيات يكون مؤلماً وأكثر خطورة، وعلى مستوى السياسات يؤدي إلى الفشل، أما غياب غطاء فلسفي فكري – يمثل الأرضية التي تبلور الفكرة – فيؤدي إلى أزمة مهلكة. فبدون فهم فلسفة التغيير جيداً سيصعب تحديد السياسات والاستراتيجيات، وستدور الحركة في فراغ استراتيجي لا تبصر طريقاً، ولن تكون التكتيكات والوسائل بدورها إلا أنشطة متفرقة لا تجد إطاراً يجمعها أو يفسرها. ولن تزيد الحركات إلا بعداً عن تحقيق الأهداف.

### 3. أسباب تجاوز البناء الفلسفي الصلب

إذا كان الخطأ على المستوى الفلسفي بهذه الدرجة من الخطورة، فما الذي يجعل بعض الحركات التغييرية لا تهتم به على النحو الذي يمكنها من صياغة مشروع تغييري ناجح قادر على التصدي للواقع؟

يعود السبب في ذلك إلى عدة أمور:

**ندرة المفكرين داخل الحركات التغييرية:** فالحركات التغييرية أحياناً ما تصاب بندرة المفكرين القادرين على صناعة التصورات الكبرى، والعاكفين على مطاردة الأسئلة الجوهرية التي يطرحها الواقع وملاحقتها بأجوبة مفحمة. بل قد تتجنب أحياناً وجود ذلك النوع من المفكرين، الذي يُكثر من طرح الأسئلة، كونه يمثل مصدر إزعاج وإحراج. فهو يزعجها بطنين الأسئلة، ويحرجها إذ تكتشف أنها لا تمتلك أجوبة على أسئلته. كذلك ينغص المفكر عليها صفوها حين يفتش في التاريخ وينبش فيه محاولاً أن يقيم التجربة التاريخية، وتزداد هذه السمة في الحركات الأيديولوجية التي تثق بأفكارها بشكل لا يقبل النقاش .وبالتالي فهي غير مستعدة لأن ينقاشها أحد في جذور الأفكار التي بنت على ضوئها تصوراتها. ومن ثم سبب الوجود الأصلي ومبرره.

هذه الروح الشرسة المتحفزة ضد الأسئلة المتعلقة بجوهر وجود الحركة عادة ما تجعل الحركة وسطاً طارداً للمفكرين، وتجعلها تكتفي بأصحاب المستوى الثاني من التفكير، القادرين على التفكير استراتيجياً وتكيتيكاً، بل وأحياناً القفز مباشرة إلى التفكير التكتيكي، فتشرع في تنفيذ تكتيكات تخدم أهدافاً واهية، وهو ما قد يؤدي إلى نتائج كارثية لاحقاً.

**هيمنة التنفيذيين على القيادة:** وبناء على ندرة المفكرين يتسلم القيادة أناس أقرب للتنفيذ منهم للتفكير النقدي والبعد الاستراتيجي، وهم في الغالب لا يشعرون أصلاً بوجود مشكلة تتطلب مراجعة ونقاش وبحث في جذور الأفكار، فبالنسبة لهم المسار واضح، والطريق معروف، بقي فقط أن يتم حشد الناس له وتحفيزهم للمسير فيه. هم دائماً في انشغال بالمستوى التكتيكي ولا يتفكرون في المستوى الفلسفي إلا قليلاً. ومن ثم فإن ترمومتر الشعور بالأزمة لا يعمل إلا على المستوى التكتيكي التنفيذي، أما على المستوى الفلسفي فقد ماتت لديهم أعصاب الحس والشعور.

خداع الأيديولوجيا: فإذا كانت حركة التغيير منطلقة من أيديولوجيا دينية كالحركات الإسلامية أو أيديولوجيات أخرى كالنازية أوالشيوعية؛ فإن معظم الأيديولوجيات من شأنها أن تشوه النظرة إلى الواقع، فتشعر معتنقها أنه بالفعل يحمل كل الحلول الجاهزة لمشاكل الواقع، وليس مطلوباً من الناس سوى أن يتبعوه ليطبق هذه الرؤية. فالأيديولوجيا قد تصيب صاحبها بمرض اليقين، حيث يتوهم أن كل ما وصل إليه من أفكار صواب، وأن عقله لم يخذله قط. وأنه ليس بحاجة إلى المزيد من النظر في الواقع، وبلورة التصورات بشكل أكثر دقة ووضوح. فيظن أن الشعارات التي يحملها هي عينها الحلول التفصيلية للواقع. ومن نماذج خداع الأيديولوجيا ما حدث في مطلع القرن العشرين من خداع الفكرة النازية للأمة الألمانية، فخلقت تصوراً خاصاً عن الجنس الألماني وأحقيته بسحق الآخرين.

**التمسك بالطرح التاريخي:** في حالة أن الحركة ضاربة الجذور تاريخياً، فلا تجرؤ على مراجعة أقوال المؤسسيين، أو التخلي عن بعض أطروحاتهم الجوهرية، خاصة إن كانت تعتمد في حشدها على تاريخها العريق، الذي يعتبر مادتها التسويقية الوحيدة حين يخلو واقعها من الإنجازات. وهي تعتبر أي مراجعة فكرية على مستوى الأهداف والفلسفة نيلاً من تضحيات من ضحوا على الطريق، وهزاً للجذور التاريخية، وإقلاق الموتى من القيادات التاريخية للحركة. وهو ما تتجنبه الكثير من الحركات التاريخية، التي تدافع عن موتاها وماضيها أكثر من دفاعها عن أحيائها ومستقبلهم.

**الخوف من المصير:** فأغلب الحركات تتأسس بناء على عناوين عامة، مثل مقاومة الظلم، أو مقاومة الفساد، أو مقاومة الاحتلال، أو غيرها. دون أن تطرح تصورات حقيقية لما بعد إسقاط الظالم. فإذا لمست هذا الخلل على المستوى الفلسفي تبدأ بعد ذلك في التفكير والبحث عن سبب أعمق للوجود، ومن خلال طرح الأسئلة التي تشخص الواقع بشكل علمي، تتكشف أموراً ربما لم

تكن في حسبان الفريق المؤسس. إذ قد يكون التغيير –بناء على التشخيص الدقيق– في حاجة إلى عملية اختراق لمؤسسات الدولة، أو إلى خوض حرب اللاعنف من أجل بناء مجتمع قوي، فتكتشف الحركة أنها لم تتأسس لهذا الغرض، وأن طبيعة المنتسبين إليها لا تتناسب مع الهدف. وبالتالي تحرص على الاستمرار فيما كانت تمارسه، وتتجاهل نتيجة البحث الفلسفي في الأسئلة المتعلقة بجوهر الوجود وجدواه، لأن الإجابة قد تكون غير مرغوب فيها، فقد تقول بعدم جدوى بناء الحركة، أو استمرارها بنفس الشكل. وهنا تحار الحركة!! ماذا تفعل مع أعضائها؟ وكيف تقنعهم أنهم متمسكون بأداة غير فعالة؟ وهل تواجههم بالحقيقة فيتفلتون غاضبين ويتيهون في صحراء الفعل؟!

وهذا التحدي تواجهه الحركات التي بدأت استراتيجياً وتكتيكياً قبل أن تؤسس فلسفياً بشكل كبير وواضح، أو التي تأسست على فلسفة ضعيفة ومشوهة ومضطربة، أو تلك التي عاصرت لحظات تحول تاريخية فأصبحت فلسفتها غير مناسبة لتفسير الأوضاع الجديدة، أو في الحركات التي تطاول عليها العمر وأصبحت فلسفتها مليئة بالفجوات نتيجة الهرم وفعل الزمن. كما نراه جلياً في الحركات التي تصل إلى الحكم قبل أن ينضج لديها تصور مشروع التغيير، فتجلب على دولها الويلات، لذلك كان الخطأ على المستوى الاستراتيجي مؤلماً، بينما الخطأ على المستوى الفلسفي مهلكاً كما أشرنا سابقاً.

## مفاهيم

1. **المجتمع حامل الرسالة:** تسعى حرب اللاعنف إلى إيجاد المجتمع القوي، ونعني به المجتمع الذي يتمتع بالخصائص التالية:

- يحمل رسالة ومهمة لنفسه وللإنسانية.
- حر.
- متماسك وإن تعددت فيه الأعراق والطوائف والثقافات.
- يعاد توزيع السلطة فيه بحيث لا تتكرس في يد الحكومة.
- يدار الصراع السياسي فيه بشكل مدني لا عسكري، عبر وسائل حضارية ترتقي بمسار البشرية.

وقد يعرف البعض المجتمع حامل الرسالة أو المجتمع الرسالي على أنه المجتمع الأيديولوجي أو صاحب الفكر السياسي المحدد، وعليه فإنهم يوجهون النقد للدعوة إلى تأسيس مثل هذا المجتمع، ورغم أن هذا التعريف قد يكون على درجة عالية من الصواب إلا أنه لا ينبغي النظر إلى الرسالة أو الأيديولوجيا على أن لها دائماً انعكاساً سلبياً لمصالح خاصة أو طموحات شخصية؛ بل إنها في الحقيقة تمتلك قدرة عالية على تأسيس وقيادة الفعل السياسي لتشكل الحياة المادية، ومن ثم لبناء الحضارة.

فالأيديولوجيا كما عرفها أندرو هيوود هي "مجموعة من الأفكار المترابطة بدرجة أو بأخرى، والتي تمثل أساساً لعمل سياسي منظم، سواءً كان الهدف منه حفظ أو تطوير أو هدم نظام توزيع القوة القائم. ومن ثم فإن كل الأيديولوجيات:

أ- تعرض شرحاً وتفسيراً للنظام القائم، عادةً في شكل رؤية عالمية وحضارية.

ب–تقدم نموذجاً للمستقبل المنشود ورؤية للمجتمع الصالح.

ج– تشرح ما يمكن وما ينبغي عمله ليتم هذا التغيير السياسي. بمعنى كيف نتحول من الوضع (أ) إلى الوضع (ب).

وعليه فإن الأيديولوجيا بمثابة نظام فعل موجه للأفكار، فهي ليست سيئة أو جيدة، صحيحة أو خاطئة، واسعة الأفق أو ضيقة، متحررة أو منغلقة، جامدة أو مرنة، فقد تكون خليطاً من كل ذلك.

أما تأثير الرسالة على الحياة السياسية فنلحظه في عدة أمورنذكر بعضها:

أ– توفر منظوراً نرى ونفهم العالم من خلاله. فتجعلنا نراه كما نحلم وتهدينا للعمل من أجل الوصول إلي نموذج ما.

ب–تحدد الأهداف التي تقود وتوجه النشاط السياسي.

ج–كل السياسيين يسعون نحو امتلاك القوة، ولكن الرسالة هي التي تحدد ماذا يفعلون بها عندما يمتلكونها.

د– تشكل طبيعة النظام السياسي.

هـ–تشكل "إسمنت اجتماعي"، فتجمع المجتمع على مجموعة من المعتقدات والأحلام والقيم.

و– تشكل مجموعات أو طبقات اجتماعية جديدة لم تكن موجودة من قبل.

ز– تمثل نوعاً من الضبط الاجتماعي، لأنها – أي الرسالة – تخلق نوعاً من الطاعة بين أعضائها.

وهكذا فإن تأسيس المجتمع الرسالي بالإضافة إلى كونه عاملاً أساسياً وحاسماً في عمليات التحول الاجتماعي فإنه أيضاً واقع نراه في كل حضارةٍ شيدت منذ بدء الخليقة وحتى يومنا هذا.

**2. الفارق بين الواقعية السياسية والواقع السياسي:** تستخدم "الواقعية" كمفهوم سياسي للتعبير عن التعامل مع الواقع والانطلاق منه في معالجة القضايا السياسية واليومية. فعندما نطلب من إنسان أن يكون واقعياً؛ فإننا نقصد أن يعيش الواقع ويبتعد عن التحليق بعيداً في عالم الخيال والمثالية. ثم أصبح المفهوم يعد استسلاماً للواقع، وفي ظل واقع فريق من الأحزاب والحركات المترهل التي لا تقوى على مجابهة التحديات بات يرادف الانهزامية. وأصبح الفعل السياسي لهذا الفريق يتسم بالواقعية، وينطلق من رؤية واحدة تتقاطع مع السياسية في مفهومها السلبي وهو فن الممكن.

أما الواقع السياسي فيعني تشخيصاً علمياً للواقع يتم من خلاله دراسة عوامل القوة والضعف على الصعيدين الذاتي والخارجي، وتحديد التحديات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وحصر القدرات والكفاءات التي نمتلكها. وبناءً على تحديد علمي واضح بعيداً عن الضبابية يمكن رسم معطيات الاستجابة.

والفارق بين فريق الواقعية السياسية وفريق الواقع السياسي أن الأول يتمثل نشاطه السياسي في ردود أفعال على الواقع الذي يفرضه عليه خصومه، بينما الفريق الثاني يخلق الوقائع على الأرض ثم يحصد نتائجها السياسية. فالفريق الأول يتعاطى مع الواقع كما هو، ويدور في فلكه محاولاً التعامل معه ضمن فن الممكن؛ بينما يحاول الفريق الثاني استنهاض الواقع القائم وتطوير عناصر القوة الذاتية والموضوعية الكامنة فيه، ورفع سقف الممكن، في محاولة جادة لخلق واقع جديد يستطيع من خلاله تحقيق الأهداف المرجوة.

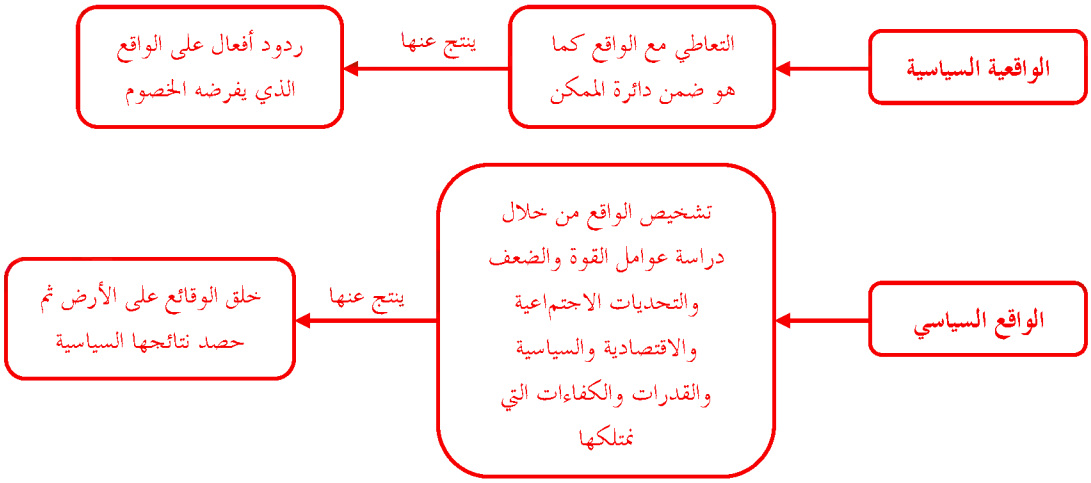


**شكل 5: الواقع السياسي والواقعية السياسية**

**3. درجات فهم الواقع:** أشار أفلاطون إلى درجات فهمنا للواقع من خلال المثال التالي: لنفترض أن شجرة تقع على ضفة نهر، وأنت تقف بجانبها تنظر إلى الماء؛ في هذه الحالة سترى الشجرة عبارة عن شبح منطبع في ماء النهر يتماوج بتماوجه، فهذه أدنى درجات معرفتنا بالواقع، ولنسمِّها: "**المعرفة الشبح**".

فإذا ابتعدت عن الشجرة قليلاً والتفت إلى الجهة الأخرى، سترى ظلها مرسوماً على الأرض، وهذه درجة من المعرفة بالشجرة أفضل من الأولى، ولنطلق عليها: "**المعرفة الظل**".

أما إذا واجهت الشجرة ونظرت إلى جذعها وأغصانها، فستراها في هذه الحالة كما تمثل أمام عينيك، لنقل صورة على عدسة العين، وهذه معرفة أرقى من الأوليين، لأن ما ينطبع في عينيك ليس شبح الشجرة ولا ظلها بل صورتها المحسوسة، ولنسم هذه: "**المعرفة المحسوسة**".

ولكن الصورة البصرية لا تقدم لك معرفة إلا بهذه الشجرة المشار إليها، التي قد تكون مُورقة وقد لا تكون، مثمرة أو غير مثمرة، نخلة أو سدرة... فهي ليست "الشجرة" بالمعنى العام الذي ينطبق على جميع الأشجار، ليست هي المثال الأكمل لفكرة الشجرة، ليست هي "حقيقة الشجرة". حقيقة الشجرة أو نموذجها الأكمل لا نحصل عليه بالحواس، بل بالعقل، فمن يشاهد أنواعاً مختلفة من الشجر، ستكون معرفته بالشجرة أفضل، أما إذا كان عالماً نباتياً فمعرفته ستكون أكمل، فالحقيقة هي النموذج والمثال. ولنسم هذه الدرجة من الإدراك العقلي: "**المعرفة الحقيقية**".

إذن هناك أربع درجات من "الواقع": الواقع الشبح، والواقع الظل، والواقع المحسوس، والواقع المثال. والسؤال الآن هو: إلى أي نوع من هذه الأنواع الأربعة تنتمي معرفة الأحزاب والحركات بـ "الواقع السياسي "؟ سيكون الجواب – بناء على ما سبق – أن معرفتها بـ "الواقع

السياسي" ستكون تابعة لموقعها منه: هل تنظر إليه في الماء، أم تنظر إلى ظله، أم إلى صورته، أم تفكر فيه بناء على ما هو عليه في حقيقته متجاوزة أشباحه وظلاله وصوره الحسية؟!

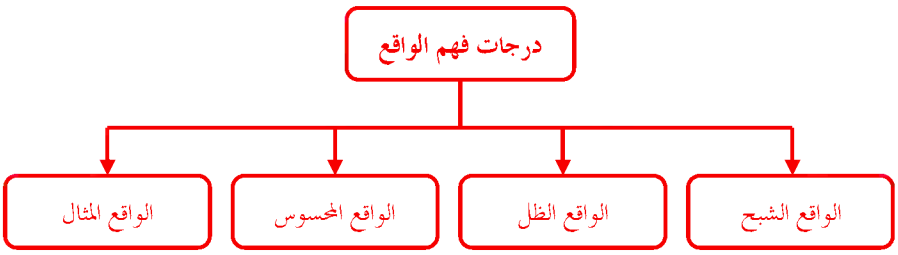


**شكل 6: درجات فهم الواقع الأربعة**